

تحت الرعاية السامية لمعالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي

SOUS LE HAUT PATRONAGE DE MONSIEUR, LE MINISTRE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE

الجامعة الإفريقية العقيد أحمد دراية - أدرار

L'UNIVERSITE COLONEI AHMED DRAYA-ADRAR

تنظيم
ORGANISE

الملتقى الدولي الحادي عشر
Onzième Colloque International

للتصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة
Le Soufisme en Islam et Les défis contemporains



التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة

Le soufisme en Islam et les défis contemporains

المحور الثاني:

نشأة التصوف وأعلامه

التصوف والطريق إلى إحياء علوم الدين عند الغزالي

أ.د. هاشم يحيى الملاح
جامعة الموصل العراق

الملخص:

عالج الباحث في هذه الدراسة مفهوم التصوف وتطوره بإيجاز، ثم قدم نبذة عن حياة الإمام أبي حامد الغزالي (450 - 505هـ)، وكيف انتهى به طلب العلم والمجاهدة في العبادة إلى الاعتقاد بان طريق التصوف هو خير الطرق المؤدية إلى الله تعالى. كما توصل بعد طول تأمل وتفكير إلى أن الطريق إلى تجديد علوم الدين وإحيائها.

هو في الجمع بين علم الفقه الذي يشرح كيفية أداء فروض الدين العملية من طهارة وصلاة وزكاة وحج أداءاً جسمانياً واجتماعياً - كما تقرر عند فقهاء أهل السنة والجماعة - وبين علم المعاملة الذي أخذه عن الصوفية وهو يوضح كيفية أداء تلك الواجبات العملية أداءً روحياً. وبذلك يصبح الفقه، فقهاء: فقه العبادة والمعاملة الاجتماعية، وفقه العبادة الروحية والمعاملة القلبية. لقد حاول الغزالي أن يوضح في كثير من النصوص أنه لا يوجد تعارض بين العلوم الشرعية التي مصدرها الوحي وبين العلوم العقلية التي يتم التوصل إليها عن طريق العقل والإلهام، وأن احدهما يكمل الآخر: "فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل. فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من احد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية...".

وقد أوضح الغزالي أن العلوم العقلية "تنقسم إلى دنيوية وأخروية، فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات، والأخروية: كعلم أحوال القلب، وآفات الأعمال، والعلم بالله وبصفاته وأفعاله" ويشير الغزالي إلى "ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية - أي العقلية - دون التعليمية - أي الشرعية -، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، والإقبال بكنه الهمة على الله ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم" غير أن الغزالي ينبه إلى أن طريق المجاهدة قد يفضي بصاحبه إلى العلم عن طريق الكشف، لكن الإقتصار على هذا الطريق ليس مأمون العواقب، فقد يفسد المزاج أثناء المجاهدة، ويختلط العقل ويمرض البدن "وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم تثبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فلاشتغال بطريق التعلم أوثق واقرب إلى الفرض".

وقد وجد الغزالي أن هنالك من يرى تعارضاً بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية فرد عليهم بقوله: "وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه في الدين، فيتحير به، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين، و ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدين، وهيهات..".

لذا أنتقد الغزالي الفلاسفة انتقاداً شديداً في كتابه تهافت الفلاسفة، ليس لأنه لا يثق بقدرة العقل ودوره في الوصول إلى الحقائق العلمية وإنما لأن الفلاسفة قد استخدموا العقل في غير المجالات التي خلق لها "فالغزالي لم يتهم العقل إلا في مسائل ما بعد الطبيعة فقط - أي الإلهيات - وهي المسائل التي تعثر فيها الفلاسفة وتفرقوا مذاهب شتى وطرائق قديداً، وما ذلك إلا لأن مسلكهم فيها لم يكن برهانياً يؤدي إلى العلم اليقيني الذي حدده الغزالي بل كل ما يمكن أن يصل إليه العقل في شأنها هي نتائج ظنية لا تغني من الحق شيئاً... وإما ما عدا ذلك من علوم ومعارف فأن العقل قادر على مواجهتها وخوض غمارها. وهكذا فالعقل ثقة في مسائل الرياضيات والمنطقيات، والفلكيات، وغير ثقة في حقائق الإيمان ومسائل ما بعد الطبيعة".

وفضلاً عما تقدم فقد عمل الغزالي على معالجة مسألة العلاقة بين العلوم الشرعية المكتسبة عن طريق التعلم، تعلم تفسير والحديث والفقه والكلام، والعلم الغيبي اللدني الذي طريقه الإلهام وهو الذي يعتمد عليه خواص المتصوفة حيث أوضح في (الرسالة اللدنية) خصائص هذا العلم وطرقه وحاول وضع الحدود التي تم من الغلوب والانحراف عن التوحيد، وذلك من خلال تأكيده المستمر على ضرورة الجمع بين العلوم الشرعية والعلوم اللدنية، والعلوم المسعية والعلوم العقلية، وعدم استقلال احدهما عن الآخر.

اختلف الباحثون في تعريف معنى التصوف بحسب طبيعة تفكيرهم والمناهج التي يأخذون بها في بحوثهم حتى وصل عددها عند نيكلسون إلى ثمانية وسبعين تعريفاً⁽¹⁾. لذا كأن من الأفضل تأخير البحث عن تعريف التصوف، والمبادرة إلى الحديث عن نشأته وتطوره وبرز المبادئ والقيم التي قام عليها والأهداف التي سعى إلى تحقيقها على الرغم من تعدد التوجهات والاجتهادات التي حملها أصحابه ممن حملوا صفة التصوف.

يقول ابن خلدون أن أصل طريقة التصوف: "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والأعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكأن ذلك عاماً في الصحابة والسلف. فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة. وقال القشيري رحمه الله: ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس. والظاهر أنه لقب. ومن قال: اشتقاقه، من الصفاء، أو من الصفة، فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك من الصوف لأنهم لم يختصوا بلبسه"⁽²⁾.

ويميل ابن خلدون إلى ترجيح اشتقاق التصوف من الصوف، لأن الصوفية "في الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف. فلما اختص هؤلاء بمذهب الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة اختصوا بماخذ مدرجة لهم"⁽³⁾.

ويلاحظ أن بعض الزهاد الأوائل الذين حملوا اسم التصوف لم يكن موقفهم سلبياً من الأوضاع العامة في المجتمع، وذلك لأنهم كانوا يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الولاة والسلطين. لذا فقد ذكر ادم متز أنه "كأن ثم صوفية أتقياء من أصحاب النزعة العملية، اخذوا جادين بالواجبات المفروضة على المسلم، وكانوا يتدخلون في حياة المجتمع تدخلاً شديداً الوطأة"⁽⁴⁾.

وعلى الرغم مما تقدم، فقد غلبت على الصوفي صفات الزهد والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة. لذا فقد ركزت بعض التعريفات التي وصلت إلينا عن التصوف على هذه الصفات، نحو تعريف معروف الكرخي للتصوف بأنه (الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق)، وقول التستري (التصوف قلة الطعام والسكون إلى الله والفرار من الناس)، وقول أبو بكر الشبلي (التصوف الجلوس مع الله بلاهم).

(1) مطلق، د. فضيلة عباس، الأصول الاشرافية عند فلاسفة المغرب، بغداد 2001 ص 93.

(2) تاريخ العلامة ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، بيروت (دار الكتاب اللبناني) 1960، ج 2، ص 863.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 863.

(4) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت (دار الكتاب العربي) ط 4، 1967،

ج 2، ص 23.

وأخيراً قول الغزالي في توضيح سمات التصوف، بأنه طرح النفس في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، وأنه تصفية القلب عن مرافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، ومتابعة رسول الله في الشريعة⁽⁵⁾.

في ضوء ما تقدم، فقد اشتهر الصوفية بشدة محاسبة أنفسهم في سائر أعمالهم والنظر في حقائقها. "فظهر أن أصل طريقتهم كلها محاسبة النفس على الأفعال والترك، والكلام في هذه الأذواق والمواجد التي تحصل عن المجاهدات، ثم تستقر للمريد مقاماً، ويترقى منها إلى غيرها"⁽⁶⁾.

وقد تولى عدد من علماء الصوفية منذ القرن الثالث الهجري الكتابة عن الصوفية وشرح مصطلحاتها "فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك كما فعله المحاسبي في كتاب الرعاية له، ومنهم من كتب في آداب الطريقة وأذواق أهلها ومواجدهم في الأحوال كما فعله القشيري في كتاب الرسالة، والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم. وجمع الغزالي رحمه الله بين الأمرين في كتاب الأحياء، فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بين آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم. وصار علم التصوف في الملة علماً مدوناً، بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها تتلقى من صدور الرجال"⁽⁷⁾.

وقد ذكر ابن خلدون أن غاية (المريد) من سلوك طريق التصوف هي أن ينتهي إلى (التوحيد والمعرفة) التي هي الغاية المطلوبة للسعادة. وقد عبر عن ذلك بقوله: "ثم أن هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم... فيتعرض (المريد) حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الدنية والفتح الإلهي، وتقرب ذاته في تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى، أفق الملائكة"⁽⁸⁾.

وقد أشار ابن خلدون إلى أن طريق (الكشف) في طلب العلم الإلهي قد يوقع صاحبه في بعض (الشطحات) والانحرافات عن العقيدة الصحيحة. وقد عبر عن ذلك بقوله: "وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات، فأكثر كلامهم فيه نوع من المتشابه، لما أنه وجداني عندهم، وفائد الوجدان عندهم بمعزل عن أذواقهم فيه، واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه، لأنها لم توضع إلا للمتعارف، وأكثره من المحسوسات"⁽⁹⁾.

⁽⁵⁾ مطلق، الأصول الاشرافية عند فلاسفة المغرب، ص 93 - 94.

⁽⁶⁾ ابن خلدون، تاريخ العلاقة ابن خلدون، ج 2، ص 867.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 866.

⁽⁸⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 866 - 867.

⁽⁹⁾ المصدر نفسه، ج 2، ص 880.

وعلى الرغم من الموقف المتحفظ لابن خلدون تجاه المعرفة عن طريق الكشف الرباني فإنه لم يحاول إدانة هذا الطريق كما فعل بعض الفقهاء وحاول أن يقدم تفسيراً لذلك ويفرق في الحكم بين حالة وأخرى، فقال بأنه ينبغي لنا ألا نتعرض لكلامهم في الكشف "ونتركه فيما تركناه من المتشابه، ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة، فأكرم بها من سعادة وأما الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الأنصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس، والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه، وصاحب الغيبة غير مخاطب، والمجبور معذور"⁽¹⁰⁾.

ويبدو أن موقف ابن خلدون المتعاطف مع الصوفية حتى في حال الوقوع في (الشطحات) قد أملت ظروف العصر الذي يعيش فيه وسعة انتشار التصوف بين الناس. أما في العصور المتقدمة لظهور التصوف وبخاصة في القرن الثالث والرابع فقد كان موقف الفقهاء من هذه الظاهرة عنيفاً، إذ أنهم رموا بعض ذوي الشطحات من المتصوفة بالكفر والمروق عن الملة الإسلامية. كما ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى محاولة إبراز بعض التأثيرات الدينية والفلسفية القديمة في الفكر الصوفي⁽¹¹⁾.

في ضوء ما تقدم فقد سعى بعض كبار المتصوفة من أمثال الكلا باذي وهو فقيه حنفي متصوف وأبو نصر السراج الطوسي في كتاب (اللمع)، وأبو عبد الرحمن السلمي صاحب كتاب الطبقات وأبو سعيد بن أبي الخير وأبو القاسم القشيري، إلى العمل على ربط التصوف وعلومه بعلم الشريعة الإسلامية في مجال الفقه والآداب وعلم الكلام. وبذلك نجحوا في تقوية أواصر الصلة بين الإسلام (السنني) وبين التصوف. كما عملوا على تنظيم أنفسهم بطريقة محكمة شبيهها بعض الباحثين بتنظيمات الشيعة الإسماعيلية، فاتخذوا لأنفسهم مراكز للذكر والعبادة سميت خانقاهات أو تكايا وربط⁽¹²⁾.

وقد شجع هذا التحول الذي مر به التصوف حكام الدولة الغزنوية والسلجوقية على تبني الصوفية ومحاولة الاستفادة منها في صراعهم مع الدولة الفاطمية التي كانت تتاصر الشيعة الإسماعيلية. وبذلك تمتع الصوفية ومنذ القرن الخامس بحماية الدولة وتشجيعها⁽¹³⁾.

في هذه الأجواء، وبخاصة في عهد الوزير السلجوقي نظام الملك، نشأ أبو حامد الغزالي، وساهم في النشاطات العلمية والثقافية بطريقة متميزة في المجالات الفقهية والفلسفية والصوفية. فكيف تسنى له ذلك؟ هذا ما سنعالجه في المبحث الآتي:-

الغزالي، نشأته وتحولاته الفكرية:-

(10) المصدر نفسه، ج2، ص881.

(11) الجابري، د. محمد عابد، تكوين العقل العربي، بيروت، ط7، 1998، ص277 - 278.

(12) المرجع نفسه، ص278 - 281.

(13) المرجع نفسه، ص280 - 281.

أن المصادر التي ترجمت لحياة الغزالي تكاد تتفق على الخطوط الأساسية التي مر بها في حياته. ويبدو أن السبب في ذلك هو أن الغزالي كتب سيرته الذاتية في أواخر حياته في رسالة المنقذ من الضلال. فجاءت مثلاً يحتذى من قبل كل من ترجم لحياته وبخاصة وأن معظمهم أن لم يكن كلهم كانوا من المحبين له والمعجبين بسيرته.

ومن أجل تقديم صورة واضحة وموجزة عن حياة الغزالي سنحاول عرضها على شكل فقرات وبحسب التسلسل الآتي:-

- ولد أبو حامد محمد الغزالي في مدينة طوس بخراسان⁽¹⁴⁾، سنة 450هـ وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في حانوته لذا اشتهر باسم الغزالي⁽¹⁵⁾.

- وتشير المصادر إلى أنه حين أدركت والده الوفاة "أوصى به وبأخيه احمد إلى صديق له صوفي صالح فعلمهما الخط وأدبهما. ثم نفذ منه ما خلفه أبوهما وتعذر عليه القوت فقال: لكما أن تلجأ إلى المدرسة. قال الغزالي: فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت"⁽¹⁶⁾. وهذا يدل على أن الغزالي كان ينتمي إلى أسرة فقيرة، وأنه لم يستطع مواصلة العيش والدراسة إلا بالاعتماد على ما كانت تقدمه المدرسة له ولغيره من طلاب الفقه.

ولا تشير المصادر إلى المدة التي مكثها الغزالي في هذه المدرسة، لكنها تذكر أنه في نهاية هذه الفترة تفرق عن أخيه "فارتحل إلى أبي نصر الاسماعيلي بجرجان، ثم إلى إمام الحرمين (الجويني 419هـ - 478) بنيسابور، فلزمه حتى صار أنظر أهل زمانه، وكان الإمام يحبه باطناً لما يصدر عنه من سرعة العبارة وقوة الطبع، وابتدأ التصانيف في حياة الإمام"⁽¹⁷⁾. ويبدو أن عمر الغزالي قد ناهز على العشرين عاماً حينما التحق بالإمام الجويني، فهو يقول في (المنقذ من الضلال): "ولم ازل في عنفوان شبابي وريعان عمري - منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين - اقتحم لجة البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة، واتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، واستكشف أسرار مذاهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل..."⁽¹⁸⁾. فاذا صح هذا الافتراض فيكون الغزالي قد التحق بالجويني في سنة 470هـ "فمكث في صحبته ثمان سنوات يدرس ويشارك في المناظرات ويقوم بوظيفة معيد للدروس. وعندما توفي

(14) المرجع نفسه، ص 282.

(15) الحنبلي، عبد الحي بن العماد، بيروت (دار الكتب العلمية)، بلايت، ج 4، ص 11.

(16) المصدر نفسه، ج 4، ص 11.

(17) الحسيني، أبو بكر بن هداية الله، طبقات الشافعية، بيروت (دار القلم) بلايت، ص 248.

(18) المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال، حققه وقدم له الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد، دار الأندلس، ط 9،

سنة 1980، ص 79 - 80.

استأذنه سنة 478هـ التحق بحاشية الوزير نظام الملك وأنتظم في سلك العلماء والفقهاء الذين احاط هذا الأخير نفسه بهم⁽¹⁹⁾.

- ولم توضح لنا المصادر المنهج الدراسي الذي درسه على يد شيخه الإمام الجويني على مدى ثمان سنوات، ولكن يبدو من الاطلاع على ترجمة الجويني أنه قد درس الفقه الإسلامي على مذهب الشافعي مع اصول الفقه، فضلاً عن علم الكلام عند الاشاعرة، كما خاض في أحوال الصوفية وأرباب الأحوال⁽²⁰⁾.

وتشير بعض المصادر إلى أن الجويني كان قد تعرض للادى من قبل المعتزلة حينما ظهرت الفتنة بين المعتزلة والاشاعرة، وغلبت المعتزلة، فخرج من نيسابور وقدم بغداد فاقام مدة بها، ثم خرج إلى مكة فجاور مكة اربع سنين يفتي وصنف النهاية هناك. ثم عاد إلى نيسابور بعد ركون الفتن، وفوض اليه التدريس والخطبة، ومجلس الوعظ وامور الاوقاف، وعظم شأنه عند الملوك⁽²¹⁾ أن تجربة الجويني القاسية بسبب الصراع المذهبي بين المعتزلة والاشاعرة لابد وأنها قد انعكست على فكر ومشاعر تلميذه المجد الغزالي، كما أن مكانة الجويني لدى حكام الدولة وبخاصة الوزير نظام الملك قد مهدت الطريق امام الغزالي لاتخاذ مكانة بارزة في مجلس الوزير بعد وفاة شيخه الجويني، علماً أن نظام الملك كان نصيراً للاشاعرة من اتباع مذهب الشافعي فضلاً عن أنه كان يشجع الصوفية والتصوف.

- لقد التحق الغزالي بمجلس نظام الملك بعد وفاة أستاذه الجويني في سنة 478هـ كما قدمنا واستمرت إقامته بجواره ست سنوات، وكان في هذه المدة "محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة الفصحاء، فوقع للغزالي امور تقتضي علو شأنه من ملاقاتة الأئمة ومجارات الخصوم اللدود ومناظرة الفحول، ومناظرة الكبار، فاقبل (نظام الملك) عليه وعظمه وسلم إليه اموراً فعظمت منزلته وأنتشر في الآفاق، وألح عليه الملك للتدريس بنظامية بغداد، فنفذت كلمته وعظمت حشمته، حتى غلبت حشمته على الأمراء والوزراء"⁽²²⁾.

يتضح من النص الوارد أعلاه أن الغزالي قد أصبح في هذه الفترة من الرجال المقربين من الدولة الذين يحملون همومها ويدافعون عن قضاياها وبخاصة في مجال الفكر والثقافة. وكان ذلك يعني الالتزام بالدفاع عن توجهات الدولة القائمة على الجمع بين الفقه الشافعي والعقيدة الاشعرية والتصوف، فضلاً عن التصدي لمقولات خصوم الدولة من معتزلة، وشيعة إسماعيلية (باطنية). وفلاسفة لقد شهدت هذه

(19) الجابري، تكوين العقل العربي، ص282.

(20) الحسيني، طبقات الشافعية، ص283.

(21) المصدر نفسه، ص238.

(22) المصدر نفسه، ص248.

المدة من حياة الغزالي تصنيفه كتاب في الرد على الباطنية استجابة لطلب الخليفة المستظهر بأمر الله كما ألف كتابي مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة⁽²³⁾.

تولى الغزالي وظيفة التدريس في المدرسة النظامية في سنة 484هـ بناءً على طلب من الوزير نظام الملك، فكان ذلك ذروة ما وصل إليه من مجد ونفوذ وقد وصف القاضي أبو بكر العربي مكانة الغزالي في هذا الوقت فقال: رأيت الغزالي في بغداد "يحضر مجلس درسه نحو أربعمئة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم"⁽²⁴⁾.

غير أن نفس الغزالي لم تسترح إلى الوضع الذي هي فيه، واخذ يعاني من صراع داخلي عميق يدعو إلى التخلي عن كل ما يتمتع به من جاه ونفوذ، وقد وصف الغزالي نفسه هذه الازمة في كتابه المنقذ من الضلال، بقوله: "فلم ازل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة اشهر اولها رجب من سنة 488هـ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، اذ قفل الله لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت اجاهد نفسي أن ادرس يوماً واحداً تطيباً للقلوب المختلفة الي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة، ولا أستطيعها ألبته، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم ومرارة الطعام والشراب...، ثم لما أحسست بعجزتي وسقطت بالكلية اختياري التجأت إلى الله التجاء المضطر الذي لا حيلة له فاجابني الذي يجيب المضطر اذا دعاه، وسهل على قلبي الأعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا ادبر في نفسي سفر الشام، حذراً من أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي المقام في الشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها ابداً"⁽²⁵⁾.

أن من الواضح في هذا النص الذي هو بمثابة (اعترافات) أن الغزالي كان يعاني في أزمتة النفسية هذه من شعور بتناقض بين المثل والأفكار التي يؤمن بها وبين الواقع الذي يعيش فيه والذي كان يفرض عليه التزامات وتصرفات تتناقض مع قناعاته وأفكاره الحقيقية. وقد حاول الجابري كشف بعض أسباب هذا التناقض بقوله أن ذلك راجع إلى كونه وجد نفسه مضطراً لإبطال آراء يميل إليها او يعتقد بصحة بعض جوانبها، وقد حصل ذلك حينما كان يؤلف الكتب في نقض آراء الفلاسفة والباطنية. أن بعض الذين درسوا آراء الغزالي دراسة تفصيلية من القدماء والمحدثين قد لاحظوا أنه كان متأثراً ببعض آراء الفلاسفة والباطنية على الرغم من مهاجمته لها. "يقول أبو بكر بن العربي الفقيه السني الذي كان معاصراً للغزالي: (شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة وأراد أن يتقيأهم فما استطاع). اما ابن تيمية فقد لاحظ أن الغزالي يذكر في بعض كتبه اقوالاً يدعي أنها أسرار الحقائق التي تشير إليها بعض الآيات من القرآن، في حين

(23) الجابري، تكوين العقل العربي، ص 282 - 285.

(24) الحنبلي، شذرات الذهب، ج 4، ص 13.

(25) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 136 - 137.

أن تلك الأقوال هي (قول الصابئة المتفلسفة بعينه قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم وأنه أي الغزالي (يميل إلى الفلسفة لكنه أظهرها في قالب التصوف والعبارات الإسلامية) وأنه (قد حكى عنه من القول بمذاهب الباطنية ما يوجد تصديق ذلك في كتبه) (26).

ومهما كانت حقيقة الأزمة التي مر بها الغزالي، فأنها قد حملته على مغادرة بغداد في سنة 488هـ متوجهاً إلى بلاد الشام. ويقدم لنا الغزالي وصفاً دقيقاً لرحلته هذه بقوله: "ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم ادخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وفقاً على المسلمين، فلم ارى في العالم مالا يأخذه العالم لعياله اصلح منه. ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل الي الا العزلة والخلة، والرياضة والمجاهدة، اشتغلاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنيت اعتكف مدة في مسجد دمشق، اصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي. ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، ادخل كل يوم الصخرة، وأغلق بها على نفسي. ثم تحركت في داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله (ﷺ) بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فسرت إلى الحجاز ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه. فأثرت العزلة به ايضاً حرصاً على الخلة وتصفية القلب للذكر" (27). ويضيف الغزالي إلى ما تقدم تقريراً بالنتائج التي توصل إليها في ساحته الروحية هذه وعزلته عن الناس فيقول: "ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في إنشاء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها والقدر الذي اذكره لينتفع به: أنني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أسمى الأخلاق..." (28).

- وهكذا فقد شعر الغزالي أن دواعي العزلة قد ضعفت في نفسه بعد أن وجد طريقه في التصوف، فقرر الخروج من عزلته بعد أن شاور في ذلك "جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة،

(26) تكوين العقل العربي ص 285 - 286، ينظر ايضاً ص 286 - 290، ينظر ايضاً محمد عبد الرحمن مرجبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ببيروت، 1981، ص 718 - 719، ويلاحظ أن الغزالي قد اعترف بأنه يوجد في كتبه بعض أقوال الفلاسفة القدماء، ولكنه قلل من أهميتها، وعدها من قبيل توارد الخواطر، يقول الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال ص 112 ما نصه: "ولقد اعترض على بعض الكلمات المثبوثة في تصانيفنا في أسرار علوم الدين، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرانهم، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الأوائل، مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد الا في كتبهم، فإذا كان ذلك معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يهجر ويترك، فلو فتحنا هذا الباب، وتطرفنا إلى أن يهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، للزمن أن نهجر كثيراً من الحق..."

(27) المنقذ من الضلال، ص 137 - 138.

(28) المصدر نفسه، ص 139.

تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدرها الله على رأس هذه المائة. فاستحكم الرجاء وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله بأحياء دينه على رأس كل مائة. ويسر الله الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة. وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة⁽²⁹⁾.

- لقد خرج الغزالي من عزلته في عام 499هـ ليعمل على (أحياء) الدين الإسلامي لأنه قد غلب على ظنه أنه سيكون ذلك الرجل الذي يظهر على رأس المائة الخامسة من الهجرة ليحدد للأمة دينها. وربما كان ذلك سر تسمية كتابه الذي ألفه في هذه المدة باسم "أحياء علوم الدين"⁽³⁰⁾. لقد صرح الغزالي أن طريقه إلى تحقيق هذا الفرض العظيم هو نشر العلم، ولكن ليس العلم الذي يكتسب به الجاه كما كان يفعل سابقاً، وإنما "العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه"⁽³¹⁾. ويختم الغزالي حديثه عن هذا التوجه الجديد بقوله: "وأني لم أتحرك، لكنه - أي الله - حركني، وأني لم اعمل، لكنه استعملني، فأسأله أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني أتباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه"⁽³²⁾.

الطريق إلى إحياء علوم الدين:-

لقد وجد الغزالي أن الطريق إلى إحياء علوم الدين هو في الجمع بين علم الفقه الذي يشرح كيفية أداء فروض الدين العملية من طهارة وصلاة وزكاة وحج أداءاً جسمانياً واجتماعياً - كما تقرر عند فقهاء أهل السنة والجماعة - وبين علم المعاملة الذي اخذه عن الصوفية وهو يوضح كيفية أداء تلك الواجبات العملية أداءً روحياً. وبذلك يصبح الفقه، فقهاء: فقه العبادة والمعاملة الاجتماعية، وفقه العبادة الروحية والمعاملة القلبية⁽³³⁾. لقد حاول الغزالي أن يوضح في كثير من النصوص أنه لا يوجد تعارض بين العلوم الشرعية التي مصدرها الوحي وبين العلوم العقلية التي يتم التوصل إليها عن طريق العقل والإلهام، وأن أحدهما يكمل الآخر: "فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل. فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من احد الفريقين وكن جامعاً بين الأصلين، فأن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية..."⁽³⁴⁾.

(29) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص159.

(30) الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص12.

(31) الغزالي، المنقذ من الضلال، ص160.

(32) المصدر نفسه، ص160.

(33) الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، بيروت، ط6، سنة 2000، ص489 - 490.

(34) الغزالي، إحياء علوم الدين، مصر (المكتبة التجارية الكبرى)، بلايت، ج3، ص17.

وقد أوضح الغزالي أن العلوم العقلية "تنقسم إلى دنيوية وأخروية، فالدنيوية كعلم الطب والحساب والهندسة والنجوم وسائر الحرف والصناعات، والأخروية: كعلم أحوال القلب، وآفات الأعمال، والعلم بالله وبصفاته وأفعاله" ويشير الغزالي إلى "ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية - أي العقلية - دون التعليمية - أي الشرعية -، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة، بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، والإقبال بكنه الهمة على الله ومهما حصل ذلك كان الله هو المتولي لقلب عبده والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم"⁽³⁵⁾ غير أن الغزالي ينبه إلى أن طريق المجاهدة قد يفضي بصاحبه إلى العلم عن طريق الكشف، لكن الإقتصار على هذا الطريق ليس مأمون العواقب، فقد يفسد المزاج أثناء المجاهدة، ويختلط العقل ويمرض البدن "وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم تثبت بالقلب خيالات فاسدة تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن يزول وينقضي العمر قبل النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذا الطريق ثم بقي في خيال واحد عشرين سنة، ولو كان قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق واقرب إلى الفرض"⁽³⁶⁾.

وقد وجد الغزالي أن هنالك من يرى تعارضاً بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية فرد عليهم بقوله: "وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه، بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما فيظن أنه في الدين، فيتحير به، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين، وذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقصاً في الدين، وهيهات.."⁽³⁷⁾.

ويبدو أن الغزالي لم يكن في تأكيده عدم وجود تعارض بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية يهدف إلى التقريب بين أهل السنة والمتصوفة فقط بل أنه أراد أيضاً أن يمد جسراً بين أصحاب العلوم العقلية كالفلاسفة وغيرهم وبين أصحاب العلوم الشرعية وذلك واضح من تقسيمه للعلوم العقلية إلى علوم أخروية كعلوم الشريعة والتصوف وعلوم دنيوية كالتب والرياضيات والفلك وغيرها.

لقد أنتقد الغزالي الفلاسفة انتقاداً شديداً في كتابه تهافت الفلاسفة، ليس لأنه لا يثق بقدرة العقل ودوره في الوصول إلى الحقائق العلمية وإنما لأن الفلاسفة قد استخدموا العقل في غير المجالات التي خلق لها "فالغزالي لم يتهم العقل إلا في مسائل ما بعد الطبيعة فقط - أي الإلهيات - وهي المسائل التي تعثر فيها الفلاسفة وتفرقوا مذاهب شتى وطرائق قديداً، وما ذلك إلا لأن مسلكهم فيها لم يكن برهانياً يؤدي إلى العلم اليقيني الذي حدده الغزالي بل كل ما يمكن أن يصل إليه العقل في شأنها هي نتائج ظنية لا

(35) المصدر نفسه، ج3، ص18.

(36) المصدر نفسه، ج3، ص20.

(37) المصدر نفسه، ج3، ص17.

تغني من الحق شيئاً... وأما ما عدا ذلك من علوم ومعارف فإن العقل قادر على مواجهتها وخوض غمارها. وهكذا فالعقل ثقة في مسائل الرياضيات والمنطقيات، والفلكيات، وغير ثقة في حقائق الإيمان ومسائل ما بعد الطبيعة⁽³⁸⁾.

في ضوء ما تقدم، فقد أشاد الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا بموقف الغزالي من مسألة تحديد اختصاص كل من الفلسفة والدين، فذكر أن "من الخطل وفساد الراي اقامة العقيدة على العقل وحبس الدين ضمن احكام المنطق اذ لكل من الناحيتين مصدر خاص يختلف عن مصدر الناحية الاخرى: فاما المنطقيات والطبيعات والفلكيات فتستند إلى العقل، واما الدين وحقائق الايمان فتنبجس من القلب. والعقل مختص بحل مشاكل الحياة اليومية وتسخير العالم لخدمة الإنسان، واما القلب فيختص بالحدس الديني والذوق الروحي والكشف الباطن على حد مذهب الصوفية ومواجيدهم. وهكذا يكون الغزالي قد حرر الدين من غرور العقل، كما أنقذ العقل من تصلب الدين، واعاد التوازن بينهما"⁽³⁹⁾.

موقف الغزالي من العلم اللدني:-

أن إيمان الغزالي بأن طريق التصوف هو خير الطرق للوصول إلى الله تعالى قد فرض عليه معالجة مسألة العلاقة بين العلوم الشرعية المكتسبة عن طريق التعلم كعلم التفسير والحديث والفقه والكلام، والعلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عليه خواص المتصوفة.

وقد استهل الغزالي دفاعه عن موقف المتصوفة بعرض هذه الإشكالية في مقدمة "الرسالة اللدنية" فذكر أن احد أصدقائه حكى له عن بعض العلماء أنه أنكر "العلم الغيبي اللدني الذي يعتمد عليه خواص المتصوفة، وينتمي اليه اهل الطريقة، ويقولون أن العلم اللدني اقوى واحكم من العلوم المكتسبة المحصلة بالتعلم"⁽⁴⁰⁾ لأنه كان لا يظن أن احداً في العالم يتكلم في العلم الحقيقي من فكر وروية دون تعلم وكسب. فالعلم الحقيقي في نظرة هو الفقه وتفسير والكلام حسب، وليس وراءها علم، وهذه العلوم لا تتحصل الا بالتعلم والتفقه⁽⁴¹⁾.

لقد اوضح الغزالي أن هذا السؤال قد حملته على تأليف الرسالة اللدنية لتوضيح الوجه الصحيح لهذه المسألة، وكان اهم ما ذكره لترجيح وجهة نظر الصوفية بخصوص حقيقة العلم اللدني وسموه على العلوم المكتسبة ما يأتي:-

1- أن مصدر التعليم الرباني الاول هو الوحي الذي أنزل على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. ومصدق هذا قوله لنبيه (ρ) "وعلمك ما لم تكن تعلم". "فعلم الأنبياء اشرف مرتبة من جميع

⁽³⁸⁾ مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص 645 - 646، وللمزيد من التفصيل يراجع الغزالي، المنقذ من الضلال، ص 94 - 116.

⁽³⁹⁾ المصدر نفسه، ص 649.

⁽⁴⁰⁾ الغزالي، الرسالة اللدنية، في كتاب: القصور العوالي، ص 97.

⁽⁴¹⁾ المصدر نفسه، ص 97.

علوم الخلائق لأن محصوله عن الله بلا واسطة ووسيلة... فتقرر الأمر عند العقلاء أن العلم الغيبي المتولد عن الوحي أقوى واكمل من العلوم المكتسبة، وصار علم الوحي ارث الأنبياء وحق الرسل، وأغلق الله باب الوحي من عهد سيدنا محمد (ﷺ) وكان رسول الله وخاتم النبيين، وكان اعلم الناس وأفصح العرب والعجم، وكان يقول (أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال لقومه (أنا أعلمكم وأخشاكم من الله، وكان علمه اكمل واشرف وأقوى لأنه حصل عن التعلم الرباني، وما اشتغل قط بالتعلم والتعليم الإنساني. قال (علمه شديد القوى).."(42).

2- اما مصدر التعليم الثاني كما يذكر الغزالي فهو الالهام وهو "تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها. والالهام اثر الوحي فأن الوحي هو تصريح الأمر الغيبي، والالهام هو تعريضه. والعلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً والذي يحصل عن الالهام يسمى علماً لدنياً، والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري، وهو كضوء سراج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف... فالوحي حلية الأنبياء، والالهام زينة الاولياء"(43).

3- أن الحكمة الحقيقية - كما يذكر الغزالي - تنال من العلم اللدني "وما لم يبلغ الأنسان هذه المرتبة لا يكون حكيماً، لأن الحكمة من مواهب الله (يؤت الحكمة من يشاء من عباده، ومن يؤتى الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولوا الالباب)، وذلك لأن الواصلين إلى مرتبة العلم اللدني مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم، فيتعلمون قليلاً ويعلمون كثيراً، ويتعبون يسيراً ويستريحون طويلاً"(44).

4- يقول الغزالي "أن الوحي اذا انقطع وباب الرسالة اذا أنسد استغنى الناس عن الرسل واطهار الدعوة بعد تصحيح الحجة واكمال الدين كما قال تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم".. فاما باب الالهام فلا ينسد ومدد نور النفس الكلية لا ينقطع لدوام ضرورة النفس وحاجتها... فالله اغلق باب الوحي وفتح باب الالهام رحمة وهياً الامور، ورتب المراتب ليعلموا أن الله لطيف بعباده يرزق من يشاء بغير حساب"(45).

5- لقد أوضح الغزالي في خاتمة رسالة العلم اللدني أن العلم اللدني وهو سريان نور الالهام يكون بعد التسوية كما قال الله تعالى (ونفس وما سواها) وهذا الرجوع يكون بثلاثة اوجه "(احدها) تحصيل جميع العلوم واخذ الحظ الأوفر من اكثرها (والثاني) الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة فأن النبي (ﷺ) اشار إلى هذه الحقيقة فقال (من عمل بما علم الله العلم بما لم يعلم) وقال (ﷺ) (من اخلص لله اربعين صباحاً اظهر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)، (والثالث) التفكير، فأن النفس اذا تعلمت

(42) المصدر نفسه، ص115 - 116.

(43) المصدر نفسه، ص116.

(44) المصدر نفسه، ص117 - 118.

(45) المصدر نفسه، ص118.

وارتاضت بالعلم ثم تتفكر في معلوماتها بشروط التفكير يفتح عليها باب الغيب، كالتاجر الذي يتصرف في ماله بشرط التصرف تفتح عليه أبواب الربح، وإذا سلك طريق الخطأ يقع في مهالك الخسران، فالمتفكر إذا سلك سبيل الصواب يغير من ذوي الالباب، وتفتح روزنة من عالم الغيب في قلبه فيصير عالماً كاملاً عاقلاً ملهماً مؤيداً..⁽⁴⁶⁾.

وهنا، لابد من ملاحظة أن ما يذكره الغزالي عن العلم اللدني وطرق الوصول اليه هو ثمرة تجربته الروحية العميقة على طريق التصوف، ومعايشة الصوفية. وقد عبر عن ذلك بقوة ووضوح بقوله: "أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم احسن السير، وطريقهم اصوب الطرق، واخلاقهم ازكى الاخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم واخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا اليه سبيلاً، فأن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها - وهي اول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، واخرها الغناء بالكلية في الله، وهذا اخرها بالاضافة إلى ما لا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من اوانلها. وهي على التحقيق اول الطريقة، وما قبل ذلك كالدلهيز للسالك⁽⁴⁷⁾.

وهنا، ينتقل الغزالي إلى وصف طريق السالك إلى العلم اللدني، وتأثير ذلك عليه ايجاباً وسلباً، فيقول: "ومن اول الطريقة تبتدئ المكاشفات (والمشاهدات)، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم اصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز منه. وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب، يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الاسنى، بل الذي لا يسته تلك لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست اذكره فظن خيراً ولا تسال عن الخير⁽⁴⁸⁾.

يتضح مما تقدم، أن الغزالي قد عرض في دفاعه عن العلم اللدني عند خواص الصوفية واقع حالهم مع محاولة وضع الحدود التي تمنع من الغلو والانحراف عن التوحيد بحسب ما قررته الشريعة الإسلامية.

⁽⁴⁶⁾ المصدر نفسه، ص122.

⁽⁴⁷⁾ المنقذ من الضلال، ص139 - 140.

⁽⁴⁸⁾ المصدر نفسه، ص140 - 141.

وقد لاحظ ابن خلدون ما سبق للغزالي أن حذر السالكين لطريق التصوف من الوقوع فيه، فذكر أن "المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة... وملاوا الصحف منه، مثل الهروي في كتاب المقامات له، وغيره، وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما، ثم ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضاً بالحلول والهيئة الأئمة، مذهباً لم يعرف لأولهم، فاشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه راس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه احد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من اهل العرفان"⁽⁴⁹⁾.

في ضوء ما تقدم، فقد عقد بعض الباحثين مقارنة بين الولاية عند الصوفية والإمامة عند الشيعة، فذهب الجابري إلى أن الولاية الصوفية تختلف عن الإمامة الشيعية "في أن الإمام الشيعي فقيه وزعيم سياسي وقائد روعي في نفس الوقت، أما الولي الصوفي فأن الموهبة الأساسية التي يدعيها والمهمة الرئيسية التي يمارسها هي القيادة الروحية. أما الفقه والسياسة، فهو من الناحية المبدئية لا يهتم بهما، وأن كان كثير من الأولياء وشيوخ الطرق الصوفية قد جعلوا من قيادتهم الروحية زعامة سياسية أيضاً، بالإضافة إلى أن كثيراً منهم كانوا يفصلون في القضايا الشخصية والاجتماعية التي يعرضها عليهم اتباعهم والتي ترجع إلى ميدان الفقه والتشريع"⁽⁵⁰⁾.

في ختام هذا البحث، قد يكون من المناسب الإشارة إلى وجود علاقة وثيقة بين دور الولي الصوفي في القيادة الروحية وبين الدور الذي عزم الغزالي على القيام به من أجل إحياء الدين، وقد اعلن ذلك صراحة وهو يقرر إنهاء حياة العزلة والعودة إلى وطنه نيسابور فقال: "فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات. وقد وعد الله بأحياء دينه على راس كل مائة، ويسر الله الحركة للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة 499هـ"⁽⁵¹⁾. وقد وصفت بعض المصادر حياة الغزالي بعد أن عاد إلى وطنه، فذكرت أنه كان "مقبلاً على التصنيف والعبادة وملازمة التلاوة ونشر العلم وعدم مخالطة الناس. ثم أن الوزير فخر الدين بن نظام الملك حضر إليه وخطبه إلى نظامية نيسابور والح عليه كل الإلحاح واجاب إلى ذلك واقام عليه مدة ثم تركه وعاد إلى وطنه (طوس) على ما كان عليه وابتنى إلى جواره خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين، ولزم الانقطاع ووظف اوقاته على وظائف الخير بحيث لا يمضي لحظة منها الا في طاعة من التلاوة والتدريس والنظر في الاحاديث خصوصاً البخاري، وإدامة الصيام والتهدد ومجالسة اهل القلوب إلى أن أنتقل إلى رحمة الله"⁽⁵²⁾.

(49) تاريخ العلامة ابن خلدون، ج2، ص875.

(50) بنية العقل العربي، ص345.

(51) المنقذ من الضلال، ص159.

(52) الحنبلي، شذرات الذهب، ج4، ص12.

ويصف ابن العماد الحنبلي في خاتمة هذا النص الغزالي بأنه "قطب الوجود والبركة الشاملة لكل موجود وروح وخالصة اهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن يتقرب إلى الله به كل صديق ولا يبغضه الا ملحد او زنديق.." (53).

رحم الله الغزالي، لقد عمل كثيراً، وسعى جهده لآحياء علوم الدين بحسب اجتهاده وطاقته، ولم يدع لنفسه الولاية ولا القطبية، ولكن حب الناس له واعجابهم بعمله واخلاصه حمل بعضهم على وصفه بعد وفاته بمثل هذه الصفات التي لم ينسبها إلى نفسه في حياته ابداً.

(53) المصدر نفسه، ج4، ص12.

